ذكريات مع المجمعي الراحل
الشاعر سليمان العيسى

أ. د. محمود أحمد السيّد(*)

يُعَدُّ المجمعي الر احل الشاعر سليمان العيسى من الأدباء المبدعين، فقد كان ذا موهبة أدبية متقدة شعَّت إبداعاً في أسمى معانيه وتجلّياته، وطالما أُطلق عليه شاعرُ العروبة، وشاعرُ الطفولة، وشاعرُ القومية العربية ...إلخ.

ومن سماته الانتماء الأصيل والنقي إلى وطنه سورية وإلى أمته العربية حضارةً وإنسانية.

حمل في شخصه قلباً نقيًّا صافياً، ووجداناً حيًّا ضافياً، ومشاعرَ إنسانية سامية، وسيرةً عطرة متميزة، ترفعاً عن الصغائر، ونأياً عن المظاهر، وتمسكاً بأنبل الضمائر.

عانى في مسيرة حياته النزوحَ من قريته النعيرية في لواء الإسكندرون عقب ضمّ اللواء إلى تركيا واقتطاعِه من وطنه سورية، فكابد التشردَ والجوعَ والحرمانَ والاضطهاد، وما كانت تلك المكابدة لتزيده إلا قوةً وإصراراً على المضي في دروب العلا، متجاوزاً التحديات المعترضة، والمعوّقاتِ الحائلة، مستعيناً بالإرادة القوية والصبر الجميل، فسطّر التاريخ ذكره في سجل

(*) عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

المبدعين الخالدين؛ لأن المبدعين لا يموتون، ورحم الله شاعرَنا القائل:

حيٌّ بذكراه لا موتٌ ولا عدمُ يا من تخلّده الأخلاق والشيمُ

عرفتُه من خلال شعره الذي كنا نردده، ونحن على مقاعد الدراسة في المرحلة الثانوية، وطالما ردَّدنا قوله إبّان الوحدة بين سورية ومصر:

من المحيط الهادر
إلى الخليج الثائر
لبيك عبدَ الناصر

وطالما درّست بعضاً من قصائده الشعرية عندما غدوت مدرِّساً في المرحلة الثانوية، إذ كانت مسرحيتُه «الإزار الجريح» مقررةً على طلاب الصف الثالث من تلك المرحلة، وقد تناول فيها إسلامَ جبلة بن الأيهم الملك الغساني، وما حدث معه في أثناء تطوافه في الحج عندما داس بدويٌّ على إزاره، فما كان من الملك إلا أن صفعه، فشكا أمرَه إلى الخليفة الفاروق الذي طلب إلى جبلة أن يرضي البدوي:

أرضِ الفتى
لا بدّ من إرضائه

فقال له جبلة:

أنا مرتدٌّ إذا أكرهتني

فقال له الخليفة:

عنقُ المرتد بالسيف تُحَزُّ
عالمٌ نبنيه
كل صدعٍ فيه
بشبا السيف يُداوى
وأعزُّ الناسِ بالصعلوك، بالعبدِ تساوى

فطلب جبلة إلى الخليفة أن يمهله إلى الغد حتى يتدبرَ أمره، فوافق الخليفة، ولكن جبلة هرب مع مرافقيه ليلاً إلى بلاد الروم ملتجئاً، وسلّط الشاعر الأضواء على حال الملك في بلاد الروم، والغمّ الذي اعتراه في التجائه إلى الأعداء ليحموه، والندم الذي أبداه في أواخر أيامه هنالك. وما أكثر الدروسَ والعبرَ التي تضمنتها تلك المسرحية الشعرية !

وشاءت الأقدار بعد حصولي على شهادة الدكتوراه عام ١٩٧٢م أن ألتحقَ بمديرية المناهج في وزارة التربية عام ١٩٧٣م موجِّهاً أول للغة العربية، وأن يكون مكتبي إلى جانب مكتب شاعرنا الكبير ومكتب الصديق الأستاذ فالح فلوح، إذ كنا نحن الثلاثة في غرفة واحدة، وكانت قضايا اللغة العربية هاجسنا، والبحث في التمكين لها همَّنا.

ولقد حاولت الانتقال إلى كلية التربية بجامعة دمشق، إلا أن وزير التربية آنئذٍ لم يوافق على الانتقال، فما كان مني إلا أن فكرت في الرحيل إلى خارج البلاد للعمل في ضوء شهادتي، ووقَّعت عقداً مع جامعة وهران في الجزائر عام ١٩٧٤م، ووافق الوزيرُ على إعارتي إلى الجزائر، كما وافق في الوقت نفسه على إعارة الزميل الأستاذ وائل أتاسي الموجه الأول للرياضيات، فأقامت لنا مديرية المناهج حفلاً لوداعنا، وأنشد شاعرنا والصديق الأستاذ فالح فلوح المقطوعة الآتية في الحفل:

ودّعْ دمشق إلى ذُرا الأوراس ... واقرا السلامَ لسيّدٍ وأتاسي
ركنان من دنيا المناهج نافسا ... في الحِلم أحنفَ في ذكاء إياس
مَنْ للفصاحة بعد غيبة سيّدٍ؟ ... والجبر بعد غياب وائل آس؟
عَيناتُه تبكي على سِيناته ... والجبرُ مهمومٌ لفقد الراس
ومعاهد البلد الشقيق قد اكتست ... بهما ثيابَ اللطف والإيناس

إن تــذهبا مهــلاً فــإني لاحــقٌ بكمـا علـى عَجَـلٍ أمـام النـاس
فكّــرت مــرَّاتٍ بوضــع بــائسٍ ما في رحيلي عـن هنا مـن باسِ
الجيــبُ خــاوٍ والحيــاةُ مريــرةٌ والعـيشُ قـاسٍ، أعلنـوا إفلاسـي

وغَيّرت مكان عملي من الجزائر إلى الكويت حيث عملت فيها أربع سنوات، وعدتُ إلى دمشق، ومن ثم استقرَّ بي المقام في كلية التربية بجامعة دمشق، وكنت أقود سيارة أوبل قديمة أتيت بها من الكويت، ولم يكن ليسمح أن تبقى بحوزتي أكثر من ستة أشهر، وكان يركب فيها شاعرنا الكبير عندما أمرُّ بوزارة التربية مصطحباً إياه إلى بيته في قبو بشارع أبي رمانة في طريقي إلى كلية التربية، وفي إحدى المرات سألني: هل الأصيلة معك؟ ويقصد بالأصيلة السيارة، فأجبته: نعم يا أبا معن إنها معي، ولكن لا يوجد فيها إلا مقعدُ السائق، لأن المقاعد في التنجيد، فقال: ما عليك، هذا لا يهم!، فحمل معه عدة صحف، ووضعها تحته، وأوصلته إلى بيته، وأنا متوجه إلى كلية التربية. وفي اليوم التالي أرسل إليَّ رسالة حملتها شريكة حياته الصديقة العزيزة الأستاذة الفاضلة الدكتورة ملكة أبيض، وفي الرسالة مقطوعةٌ شعرية عنوانها «مديحُ سيارة»، وقد ورد فيها:

ســيارةُ الــدكتور محمــود تمضي بهـا أحلى المواعيدِ
أخلاقُهـا يـا طيـبَ أخلاقِهـا مفتوحــةُ الأبــوابِ للجــودِ
نصفُ البراغي لم يزلْ سالماً والنصفُ فيها غيرُ مشدودِ
ركبتُهــا أمــسِ بــلا مقعــدٍ أعنــي بــلا هــمٍّ وتســهيدِ
وضعت تحتي كتبي مفرشاً فـالفرشُ فيهـا رهـنُ تنجيـدِ
وغاص رأسي تحت شبّاكِها حتــى كــأني غيــرُ موجــودِ
واعتــذر الــدكتور لا تعتــذرْ تلـك سـجايا أهلِنـا الصـيدِ

كان حصيراً كلُّ ما تحتهم وامتلكوا كلَّ المقاليدِ
كم مقعدٍ من ذهبٍ خالصٍ يعلوه عبدٌ من عباديدِ
دَعْنا إذن نكمل مشوارَنا مع الأحبّاء الأجاويدِ
من قنعوا شرواك من دهرِهم بالفِكر يا نعماءَه زيدي*
وأنت يا خجلي بلا فرشةٍ مهما تكوني صوبَنا عودي

ولكم كانت جميلةً تلك الأيامُ التي قضيناها معاً على شاطئ البحر في الرمال الذهبية بمحافظة طرطوس، حيث كنا ننعمُ بمتعة السباحةِ وتجاذبِ أطراف الأحاديث الشائقة، وممارسةِ رياضة المشي !

ولكم كان يجتمع الأطفال حول شاعرنا يُنشدون أشعارَه العذبة، ويغنّي معهم أحياناً، وهو يحدب عليهم، ويحوطهم بالمحبة والتشجيع، وطالما كانوا يوجّهون إليه الأسئلةَ فيجيب عنها مبتسماً وضاحكاً يزين ذلك كلَّه جوٌّ من العفوية والبهاء، والرفق والنقاء.

وتجدر الإشارة إلى أن شاعرنا اتجه إلى أدب الأطفال بعد حرب ١٩٦٧م عندما رأى أن المستقبل إنما سيكون على أيديهم، وأنه بقدر ما نُعنى بهم، ونهتم بحاجاتهم ورغباتهم واهتماماتهم نضمنُ لهم مستقبلاً آمناً، فتحدث عن هواياتهم وألعابهم وبيئتهم وآمالهم وأحلامهم وتطلعاتهم، ونوّع في فنون القول لهم شعراً وقصة ومسرحية .. إلخ، وأغنى هذه الفنون الأدبية ببعض الترجمات عن اللغات الأجنبية في الموضوعات المتعلقة بأدب الأطفال.

وإذا كان قد توجّه إلى الكتابة للأطفال، فإنه لم ينسَ عالم الكبار أيضاً فجاء نتاجُه في «الثمالات» شعراً ونثراً ليتحدث عن المرأة والأرض وتراث الأمة والقضية الفلسطينية والعالم المعاصر وما يدور فيه من صراعات.

(*) وفي رواية يا أحزانه.

وكثيراً ما كان يُلحّ في حديثه على الربط بين الأصالة والمعاصرة، إذ إنه مع اعتزازه وتمسكه بأصالة أمته وعراقتها، وهو القائل:

وأبعدُ نحن من مضرٍ ومن قيسٍ نعم أبعدْ
حمورابي وهاني بعل بعضُ عطائنا الأخلدْ
لنا بلقيسُ والأهرامُ والبردي والمعبدْ
ومن زيتوننا عيسى ومن صحرائنا أحمدْ
ومنا الناسُ يعرفها الجميعُ تعلموا أبجدْ
وكنا دائماً نُعطي، وكنا دائماً نُجحَد

فَتحَ نوافذَ ثقافته على العصر لينهلَ من معطياته ما يتناغم وينسجم مع ثقافة أمته وأصالتها، وطالما ردَّدَ رؤيته بهذا الخصوص عندما قال:

«أن تعتصر المتنبي ولوركا والمعري وغوته، ثم تقف على قدميك، وترى الدنيا بعينيك، تلك هي الأصالةُ والمعاصرةُ في رأيي، وأعترف أنني كنت مشدوداً إلى الذات في الفترة الأولى من نتاجي، وكانت ظلالُ القرآنِ والمعلّقاتُ وديوانُ المتنبي تحيط بي، وتشدّ على يدي في كل قصيدة أكتبها، ولكنني ما لبثت أن انفتحت على عوالمَ جديدة عندما أخذت أطالع بشغف الآداب الأجنبية وشعراء الغرب».

ومن الذكريات الجميلة «ندوةُ تطوير اللغة العربية» التي شاركنا فيها معاً في جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض عام ١٩٨٦م، وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد عقدتها في تلك الجامعة بعد أن استقدمت كوكبةً من الخبراء لمناقشة الدراسات التي أنجزها عددٌ من الباحثين في مجال تطوير اللغة العربية وكنت واحداً منهم، وكان من بين الخبراء المشاركين في الندوة الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رحمه الله الذي عرض مشروعَه «تجديد النحو».

وما أجمل تلك السهراتِ التي حضرناها وكان فيها شاعرُنا ينشد بعضاً من شعره الجميل، وكانت الابتسامة لا تغادر محيّا الدكتور شوقي إعجاباً بشعرِ شاعرنا، وتقديراً لشخصيته المحببة، ونظم الشاعر أبياتاً عدة أشاد فيها بأخلاق عالمنا الجليل لم يحالفني الحظ بالاحتفاظ بها.

ولا يمكنني أن أنسى الأسبوعَ الثقافيَ الذي أقامته وزارة الثقافة في اليمن عام ٢٠٠٥م، وكان شاعرنا مقيماً آنذاك في اليمن، فحضر معظم المناشط والفعاليات التي نُفِّذت في ذلك الأسبوع.

ولكم كنا سعيدين بالمكانة التي كان يحتلها شاعرنا في اليمن، والتقديرِ الكبير الذي كان يحظى به عند اليمنيين، وقد سُمّيتْ بعضُ المراكز والمدرجات باسمه، وقامت وزارة الثقافة اليمنية بطباعة مؤلفاتٍ عدة من أعماله.

ولقد كان لي شرفُ تقليدِه وسامَ الاستحقاق السوري من الدرجة الممتازة الذي منحه إياه السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية عندما كنت وزيراً للثقافة، وذلك إلى جانب منح الأديبين المبدعين محمد الماغوط ووليد إخلاصي الوسامَ أيضاً بناء على المرسوم الجمهوري نفسه، وأقيم حفلُ تقليدِ الأوسمة في مكتبة الأسد بتاريخ ٢/ ٥/ ٢٠٠٥م.

أما زمالتُنا في مجمع اللغة العربية فقد استمرت سنواتٍ قبل رحيله رحمه الله، كان فيها نعم المجمعيُّ المواظبُ والحريصُ على حضور جلسات المجمع ولجانِه رغم اعتلال صحته في الفترة الأخيرة من حياته، وكنا نفيدُ من ملاحظاته وآرائه وتعقيباته.

وإذا كان الشاعر المهجري إيليا أبو ماضي يقول:

ربّ ذهنٍ مثل النهار منيرٍ صار بالبؤس كالظلام دجيّا

فإن شاعرنا سليمان العيسى قد جعل منه البؤس والحرمان شاعراً مبدعاً رغم قساوة الظروف التي مرّ بها، ذلك لأن الألم الكبيرَ يجعلنا كباراً على حدّ

تعبير الشاعر الفرنسي «Musset». وفي هذا الصدد يقول الشاعر سليمان العيسى:

يا لروعة الطفولةِ وصفاء الأحلام !
الجوعُ وحده يستطيع أن يبدع
أن يبني العالم من جديد.

ومع عمق المعاناة التي كابدها، والمرارة التي ذاقها، كان التفاؤل سلاحه في النظر إلى المستقبل الأفضل، والحرص على البقاء شاعراً للأرض والقيم الإنسانية:

عربيًّا سوف أبقى
شاعراً للأرض، إنساناً سأبقى
كجذور السنديان
كالصحارى .. كالزمان
سوف أبقى ... سوف أبقى

وهاهو ذا يتساءَل:

هل يندحرُ الحلم ؟
هل نيأسُ.. ونلقي بكل شيء إلى الهوة
هوةِ العدم والضياعِ التي يريدونها لنا ؟
إنني ما أزال أَتشبثُ بطفولتي
بأحلامي البعيدة ... بينابيعي التي لا تندحر..
ما أزال أعيش نبضات القادمين
بجذور سنديانةٍ عتيقةٍ عتيقةٍ كالدهر... مختبئةٍ في أعماق الأرض...

رحم الله شاعرنا الكبير المجمعي القدير سليمان العيسى الذي خلّف وراءه ثروة وطنية وقومية وإنسانية ستظل الأجيال تُفيد من عطائها، وتنهل من ينابيعها فكراً نيّراً، وأدباً رفيعاً، وقيماً سامية.